الدرس اللغوي المعاصر عند العرب بين النظر والنموذج

احمد العلوى الاطلسي

عرف العرب قديما تجربة لغوية كسائر الامم المتحضرة ، وقد تحلوا بكثير من الصبر لاقامتها خصوصا فى القرن الثانى والثالث . وامتازت عن تجربتهم المعاصرة بكونها كانت تتصل بحقل دراستها اتصالا مباشرا . كانت تبحث جادة عن المجموع اللغوى Corpus ولم تكن نظريتها اللغوية عائمة في الهواء مجلوبة عن غير العرب من الامم ومجردة عن خيوطها التطبيقية . اما فى العصر الحاضر فان اعمال اللغويين العرب المرتبطين بالروح العامة للدراسات الانسانية المعاصرة لم ترق مع الاسف الى المجال التطبيقى الذى كان منطلق الدراسات العربية اللغوية القديمة واكتفت باجترار الافكار والنظريات الحديثة وترجمتها . وهذا يعنى ان اللغويين العرب المعاصرين لم يفهموا روح علم اللغة الحديث فهما جيدا اذ اقل ما ينبغى لهم ان يفهموه هو ان هذه النتائج التى ينقلونها ويلحون على علميتها ليست الا نتيجة ممارسة طويلة لمجموعات لغوية ولاصناف من اللهجات واللغات فى اطار الامة الواحدة او فى اطار اوربا او فى اطار دائرة اوسع. ونظن ان لهذا سببا نصنفه فيما يلى :

1 ـ احتقار العربى المؤسف للرصيد اللغوى الذى تمتلىء به الساحة العربية . وهو رصيد يمثل فى طائفة لا متناهية من اللهجات واللغات التى لو جعلت اساسا لدرس لغوى جدى لامكن اقامة علم لغوى ممتاز ومواز لعلم اللغة العربى يتبادل معه المعلومات والفوائد . ويكون بجانب غيره من الممارسات اللغوية لبنة من لبنات البناء الشامخ الذى هو علم اللغة العام.

2 ـ نفور العربى المؤسف من الممارسات الجزئية او الدقيقة ، واستمتاعه بالنتائج العامة والنظريات الشاملة التى قد تكون نهاية لدراسات جزئية خاصة بلغة ما ولكنها لا ينبغى ان تغنى اللغوى العربى عن ما ورائياتها وهذه الماورائيات هى الممارسات المتصلة بالواقع اللغوى الخاص والتى تتبع سبيلا علميا فى اقامة نتائجها .

3 ـ عجز طائفة من العرب عن التمييز بين ما هو قومي او ديني وبين ما هو علمي . هذا العجز يجعل هذه الطائفة من العرب مستلبة للماضي العربي اللغوي لانها تخلط بين ايمانها باللغة العربية الكلاسيكية وبين مكان البحث اللغوي ومنتهاه الذي لا ينبغي ان يتجه الا الى دراسة هذه العربية الكلاسيكية في نظرها . بينما الواقع يقضي بالتمييز بين هذا الايمان المشروع وبين البحث عن ميدان اوسع للممارسات اللغوية. هذا الميدان الاوسع متيسر في البلاد العربية وقمين بان يساهم مساهمة هامة في اقامة ما يمكن ان يدعى بعلم اللغة العربي المنبني على مواد عربية . ان اصحاب الاستلاب اللغوي المتجه نحو الماضي لا يجنون من موقفهم الا استلابا جديدا متجها نحو الغرب لانهم يساعدون على اهمال الواقع اللغوي العربي الذي بامكانه حفظ الاصالة العربية في المجال اللغوي دون الاخلال بمعاصرة التجربة العربية المتوقعة ومسايرتها للروح العامة للدراسات الانسانية .

ان هذه الاسباب الثلاثة غير نهائية ولكنها اوضح ما يمكن الاستناد اليه في تفسير اقتناع التجربة اللغوية المعاصرة بالنتائج العامة للممارسات اللغوية الغربية . وهو اقتناع يجعلنا نشبه عمل اللغاة العرب المعاصرين بمن يخص بناء ابتداء من الطابق الاعلى غافلا عن الاسس والركائز السفلى التي يحمل عليها البناء المفحوص. ان هذا الفحص بهذا الشكل يترك في ذهن الفاحص ضروبا من الدهشة والانبهار امام هذا البناء العالي الشامخ . ولا يبعث هذه العواطف في نفس الفاحص الا جهله بالقاعدة والاساس وغفلته عن المبادىء الاولى والتطبيقات الجزئية والتركيبات الحرفية . ان نوعا من هذه العواطف لا يفارق نفس اللغويين العرب المعاصرين وقارئيهم . وان اكبر علامة على عواطف الدهشة والاعجاب لهي اقتناع هؤلاء في اطار منقولاتهم النظرية بالامثلة الاوربية او ترجماتها وبالعناوين الكبرى التي تسقط في روع القارىء ان ما يقدم في هذه الدراسات علم نهائي ما على العرب الا ان يضيفوه الى محفوظاتهم القديمة والجديدة . وفي هذا اغفال للحركة الدائبة التي تهز كيان العلم الغربي الذي يتصل كل الاتصال بالتطبيقات . ويكفي ان ننظر الى المشاكل النحوية التي ينقلها العرب في صورتها النظرية لنجدها في واد ودراساتهم النحوية في واد آخر . ويمكن ان نذكر كثيرا من الاسماء اللامعة في المجال اللغوي العربي لندل على ما تقدم . فتمام حسان يضع كتابا عن مناهج البحث في اللغة وينقل آراء الغربيين وغيرهم ويحاول ان يقنع القارىء بانه من اتباع هذه الطرق المستحدثة في الغرب والتي لقنها في انجلترا ولكنه ما ان يحاول الحديث عن العربية بخاصة في كتابه الآخر عنها حتى ينسى مقدماته في كتابه عن المناهج ليسقط في عراك عنيف مع اللغاة

القدماء لا يخرج به عن خطهم . وهذا مثال بجانبه كثير من الامثلة . ولنشر في هذا المجال الى محمد عيد الذى لا ينى يردد فى كتبه عبارة علم اللغه الحديث بينما يسير فى الواقع على نهج من لايرى بأسا فى الاشارة الى اليسار وهو يلوى الى اليمين . فعواطف الدهشة والاعجاب تقف بلغوبينا على باب علم اللغة الغربى لا يتعدونه الى عمق التجربة الغربية مكتفين فى المجال التطبيقى بالارتداد الى مناقشات قديمة عرفتها الساحة العربية من زمان غير بعيد . ولو تعدوا تلك العتبة لعرفوا ان روح التجربة اللغوية المعاصرة يكمن فى رجوعهم الى واقعهم اللغوى والانطلاق منه ، وفى هذه الحالة كانت ستتزول عواطف الدهشة والانبهار لتحل محلها ممارسات علمية لها اسسها . ويكفى فى هذا المجال ان نقارن بين لغوى كتمام حسان المشار اليه قبل وبين لغوى فرنسى هو جان دوبوا . لقد اهتم هذا الاخير باعطاء التطبيقات المختلفة للنظريات النحوية فى نطاق اللغة الفرنسية فلم يكتف بالحديث عن البنيوية النظرية او عن التوليدية او التحويلية على المستوى النظرى الصرف ولكنه قدم بالتتابع نحوا بنيويا ثم تحويليا للغة الفرنسية واضعا بين هذه التجارب وما سبقها من تجارب الاكاديمية الفرنسية وكريفيس وغيرهما قطيعة منهجية مشروعة . وفى مجال آخر هو المجال المعجمى قدم تطبيقا للنظرية المعجمية البنيوية فى عمله عن اللغة السياسية والاجتماعية الفرنسية فى فترة من القرن 19 . وحين يقدم جان دوبوا وأمثاله من الغربيين على هذه الاعمال التطبيقية فانهم يضعون هذه النظريات الحديثة فى وضعها الحقيقى وهو وضع البقاء الذى تقضى به صحتها او وضع الموت الذى قد يكون من نصيبها ان ظهر فى العمل التطبيقى عيب كبير غير مقبول ، وهو وضع يكمم افواه المد الرجعى لانه وضع تطبيقى لا يكتفى بسرد النظريات امام الابنية اللغوية التقليدية . اما المنبهرون من العرب بالتجربة الغربية كتمام حسان فانهم يغفلون فى ترجماتهم او فى تأليفاتهم الشبيهة بالمترجمة عن الاعمال التطبيقية مكتفية بنقل النظريات التى لا تقوم ولن تقوم لها قائمة امام النماذج التطبيقية للفكر العربى القديم . وحين يقدمون على عمل تطبيقى فانهم ينساقون الى التجارب القديمة التى يحسنونها وكأن انبهارهم امام الاعمال النظرية الغربية يجعل منهم قوما عاجزين عن مسايرة هذه الاعمال الى النهاية.

ان الدرس اللغوى العربى لن يستقيم امره الا باتباع الاسس التالية:

1 ـ الاهتمام بالواقع اللغوى العربى الغنى وجعله اساسيا لعلم لغوى عام . والانطلاق من ارضيته التطبيقية الى آفاق نظريات عامة .

2 ـ فى خصوص اللغة العربية الكلاسيكية والتجربة اللغوية المرتبطة بها يجب فصل هذه التجربة عنها نظرا وعملا . وفى هذه الحالة سيلزم النحوى المعاصر قراءة اللغة العربية قراءة مستقلة عن قراءات اللغاة القدماء

لها. وستصبح اذاك اللغة العربية بغناها المعروف اداة ممتازة فى يد اللغوى العربى لا يحتكرها النحو القديم بنظرياته المعروفة .

3 ـ يتصل بالنقطة السالفة انكار التطابق المطلق والتاريخى بين العربية والنحو ، وانكار استئثار اللغة العربية المشتركة (الكلاسيكية) بالاهتمام اللغوى .

وباختصار فان ما تقدم لن يكون الا استفادة من تاريخ الشعوب الحديثة التى اجادت فى حقل اللغويات، مثل السلافيين والالمان والامريكان الذين لم يسيطروا بأفكارهم وتعاليمهم على الحقل اللغوى الا للاهتمام البالغ بواقعهم اللغوى المباشر الذى طبع دراساتهم . ولن يكون ما تقدم ايضا الا تنبيها الى ان الاستلاب اللغوى الذى يعانى منه المجتمع العربى لا ينتهى ولن ينتهى امره الا بالتخلى عنه سواء كان متجها نحو الماضى ام نحو الغرب

مكناس ـ أحمد العلوى الاطلسى